باريس : سبتمبر ١٧٩٢

عن البارونة أورزى Paroness Orczy

للأديب محمد البكرى محمد

— ١ —

.. قبل غروب الشمس بفترة وجيزة .. وفى الباب الغربى لباريس .. كانت هناك أصوات صاخبة تصدر من كائنات لا تحمل من الإنسانية غير اسمها !

.. وظلت المقصلة سحابة اليوم ماضية فى عملها المخيف .. تحصد أولئك الذين كانت فرنسا تفخر بهم فى العصور الغابرة : من ذوى الأسماء التليدة ، والدماء النبيلة .. لقد دفعوا الضريبة عندما هبت ثورة الحرية والمساواة !

.. وتوقفت المذبحة عند هذه الساعة المتأخرة من النهار .. لا لشىء سوى أن هناك مناظر أكثر أهمية .. وأكثر تسلية تشاهدها الجماهير فى الفترة القصيرة قبل أن تغلق أبواب باريس ليلا

. وهكذا اندفع الناس خارج ميدان (لاجريف) وتوجهوا إلى الأبواب المتفرقة كى يتسلوا بالمنظر المثير الذى كان يتكرر كل يوم .. منظر الأرستقراطيين الذين يحتالون – ويحاولون أن يهربوا من فرنسا

.. وكانت هذه الطبقة خائنة فى نظر العامة .. خائنة كلها بلا استثناء. ولقد طالما اضطهد أسلافهم أفراد العامة .. وداسوهم تحت أحذيتهم المترفة . ولكن ها قد أصبح العامة حكام فرنسا .. وداسوا سادتهم الأولين لا تحت أحذيتهم ، فقد كانوا فى الغالب حفاة — ولكن تحت سيف المقصلة !!.

— ٢ —

.. كانت المقصلة تدعو إليها ضحاياها . من رجال بلغوا أرذل العمر . . ونساء فى ميعة الشباب .. وأطفال فى غضاضة الزهر !. حتى جاء يوم لم ترحم مديتها فيه أن تقصل رقبة ملك .. وملكة صغيرة جميلة

. . ولكن هذا ما كان ينبغى !. ألم تصبح فرنسا اليوم فى قبضة الرعاع ! كل أرستقراطى خائن .. كما كان أسلافه من قبل ولم يعد لأحفادهم مهرب من انتقام الرعاع إلا أن ينجوا بأبدانهم ويفروا من فرنسا

.. لقد حاولوا أن يستخفوا .. وحاولوا أن يهربوا .. وكانوا فى كل ذلك مبعث تسلية لأفراد العامة ! ففى كل أصيل قبل أن توصد أبواب المدينة . . وقبل أن تخرج منها عربات الأسواق . . كان بعض الأرستقراط يحاولون الإفلات من قبضة (لجنة الأمن العام) متنكرين فى أزياء مختلفة . . يبغون لهم مقرا فى إنجلترا . . أو أى بلد آخر

.. ولكنهم كانوا — غالبا — يقعون فى قبضة الحراس ...

.. وكان (بيبو) يتوع خاص له حاسة غريبة يشم بها أيا منهم مهما أمعن فى التنكر . وكان ينظر إلى فريسته بالعين التى ينظر بها القط إلى فأر .. يداعبه .. ويتظاهر أنه خدع بمظهره .. وأحيانا يتغافل عنه .. ويدعه يمضى .. ويتيح له أن يحلم بالنجاة ولكن سرعان ما يرسل وراءه اثنين من رجاله يسيدانه خزيان .. ليلقى حتفه

.. وليس بعجيب أن يتزاحم الناس حول (بيبو) فلقد شهدوا اليوم مائة رأس نبيل تتهاوى تحت المقصلة .. وإنهم ليرجون أن يتاح لهم أن يشهدوا مائة أخرى مع الغد

— ٣ —

كان (بيبو) جالسا على برميل بجوار الباب الموكل بحراسته وتحت إمرته شرذمة قليلة من الجنود المدنيين .. وكان العمل قائما على قدم وساق فى هذه الأيام الأخيرة ، لأن أولئك النبلاء المتآمرين . قد أفزع روعهم .. ودفع بهم الفزع إلى محاولة الفرار

من باريس بأى ثمن !. ولكن (بيبو) كان بمرصد لهم دائما !. يكشف أمرهم .. ويبعث بهم إلى (تنيفيل) رئيس لجنة الأمن العام .. حيث تنتظرهم النهاية المروعة !..

.. وكانت حماسة (بيبو) واخلاصه وغيرته تبلغ إلى حد إعجابه بنفسه فلقد أرسل خمسين من الأشراف بمجهوده إلى ساحة المقصلة ! ...

.. ولكن أوامر خاصة صدرت إلى الحراس اليوم !... إن عددا غفيرا من الأشراف قد نجح فى الهروب .. وإن شائعات غريبة تلوكها الألسنة عن هذا الهرب .. وإن هذا الأمر قد أصبح شغل الناس .. ومبعث دهشة الجميع ! ... وها هو ذا (جروسبيير) تحت سيف الجلاد .. جزاء ما قصر .. فأتاح لعائلة ارستقراطية أن تفر من الباب الشمالى !..

وأصبح معروفا أن هذا التهريب تنظمه عصابة من الانجليز كانت تفتن فى أداء مهمتها .. وإنقاذ طبقة الأشراف من الإعدام .. وعمت الشائعات وترعرعت .. ولم يعد هناك شك فى وجود هذه العصابة الناشطة .. وأكثر من هذا فقد أصبح من اليقين أنها تحت إدارة رجل ذى مرة وحيلة فوق الوصف !..

.. إن أحدا لم ير هذه العصابة المخيفة .. وإن أحداً لا يجرؤ أن يذكر رئيسها .. إلا فى رعب .. كأنما يتحدث عن الشيطان !

وكان (تينفيل) تصل إليه رسالة غامضة .. يجدها مرة فى جيب ردائه .. وأخرى تصل إلى يده فى غمرة الزحام .. وفى كل مرة .. كانت تنبىء عن نشاط العصابة . وقوتها .. وكانت تحمل فى نهايتها .. ختم العصابة (الزهرة القرمزية) .. ولا تزال الأخبار تصل إلى أعضاء اللجنة ان عددا من الملكيين قد غادروا الشاطىء إلى انجلترا حيث الأمان ! ...

— ٤ —

.. ضوعف عدد الحراس .. وهددوا بالموت ، وانبثت المكافآت هنا وهناك لمن يرشد عن هذه العصابة الآثمة .. أما رئيسها .. فإن خمسة آلاف فرنك لمن يقبض عليه ! .. وقد أحسن (بيبو) أنه سيحظى بهذه المكافأة دون شك .. بل إنه واثق من هذا ! وقد لاك لم يك غريبا أن تجمع الناس حوله كل يوم .. ليشهدوا بأنفسهم هذا الحارس الماهر عندما يتصيد ضحاياه .. والتفت (بيبو) إلى مساعده قائلا :—

— « لقد كان (جرو - بيير) ابله بلا شك ! ... آه لو كنت مكانه ! .. » ثم بصق على الأرض ليعبر عن اشمئزازه من قباء زميله ... فأسرع مساعده إلى سؤاله : —

— « كيف ؟ ! . ماذا حدث ؟ ! » . وهم (بيبو) بالإجابة فى رزانة مفتعلة .. بينما تزاحمت الجماعة لتنصت — فى شغف — إلى حديثه :

— « فى الوقت الذى كان فيه (جروسبيير) عند بابه .. يلاحظه فى انتباه كانت عربات السوق تمر إلى الخارج .. وكانت إحداها محملة بالبراميل ويقودها رجل عجوز وإلى جواره ولد .. وكان (جروسبيير) ثملا نوعا ما .. ويعتقد فى نفسه المهارة الفائقة .. نظر فى البراميل — فى معظمها على الأقل — وظن أنها فارغة .. فترك العربة وشأنها ! ولم يمض نصف ساعة حتى أقبل عليه أحد ضباط الحراسة ومعه اثنا عشر جنديا .. وسأله :

— هل مرت عربة من هنا .. يقودها رجل عجوز بجواره ولد ؟

— نعم ! منذ نصف ساعة

عندئذ صاح فيه الضابط :

— وتركتهم يهربون ! ويلك .. إلى المقصلة جزاء مافرطت .. إن هذه العربة كانت تقل (دوق دى شالى) وعائلته !

فانتفض (جروسبيير) من الوجل .. ثم أردف الضابط قائلا :

— أجل ! والسائق العجوز لم يكن شخصا غير رئيس العصابة الإنجليزية !

.. وهنا تصايحت الجماعة من الدهشة . وأخذ (بيبو) يضحك كثيرا .. ثم استأنف قائلا :

— ... ثم صاح الضابط فى جنوده الاثنى عشر يهيب بهم أن يدركوا هذه العربة الهاربة .. ويذكرهم بالمكافأة .. واندفع إلى الخارج وتبعه رجاله ...

... وهنا تصايحت الجماعة مرة أخرى ! واستبعدوا أن يلحق الضابط ورجاله بالعربة .. بينما كان (بيبو) يضحك من هذا التصايح حتى بدت نواجذه .. وطفرت الدموع من عينيه .. وسرعان ما قطع دهشة الجميع حين قال :

— إن التبلاء لم يكونوا فى العربة .. ولم يكن السائق العجوز رئيس العصابة بل إن الضابط نفسه هو ذلك الإنجليزى الجرىء .. ورجاله الاثنا عشر كانوا كلهم من الأرستقراطيين .. وقد هربوا ! .

... وفى هذه المرة .. لم تتصايح الجماعة ولم تحر جوابا .. فى الحق إن هذا الإنجليزى الغامض لابد أن يكون الشيطان نفسه !

— ٥ —

... كانت الشمس تدنو إلى الغروب ... فاستعد (بيبو) أن يقفل ... وصاح أن تتقدم العربات الخارجة ... وكان هناك بضع عشرات من العربات المقفلة على استعداد أن تغادر المدينة لتحضر المحاصيل من الريف ، ابتغاء السوق فى الصباح ...

... وكانت هذه العربات معروفة جد المعرفة لدى (بيبو) لأنها تمر من خلال بابه ... مرتين كل يوم ! ولذلك كان يبدو عليه الأسف عند ما أخذ يفتش هذه العربات ... ثم لمح (بيبو) امرأة عجوزا بين سائق العربات وسائقاتها ... وكان قد رآها فى الصباح قريبا من المقصلة فقال لها :

— هيه ... يا أم ! ماذا أتى بك إلى هنا ؟ !

فأخذت تعبث بسوطها بأصابعها النحيلة المرتعشة بينما ضحكت ضحكة خشنة إلى (بيبو) وأشارت إلى مقبض سوطها المحاط بخصل من الشعر مختلفة الألوان ... وقالت له :

— لقد صادفت الجلاد !.. وقد أهدى إلى هذه الخصل من الرءوس التى تتهاوى تحت سيفه ... وقد وعدنى خصلا أخرى غداً .. ولكن لا أدرى . لعلى لا أكون هنا فى الغد !

فأسرع (بيبو) إلى سؤالها عن السبب ، فأشارت بسبابتها إلى داخل العربة وأجابت :

— إن حفيدى مصاب بالجدرى ، ويقول البعض إنه الطاعون ! وإذا كان الأمر كذلك ، فسوف لايسمح لى أن أدخل باريس فى الصباح !

ولم تكد العجوز تذكر كلمة « الجدرى » حتى تراجع (بيبو) إلى الوراء ، وعندما ذكرت « الطاعون » تقهقر عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وتحاشت الجماعة كلها هذه العربة وصاح (بيبو) فى العجوز :

— عليك اللعنة

— بل عليكم أنتم ، أيها الجبناء ! أى رجل هذا الذى يرتاع من المرض ؟! وظلت الجماعة واجمة ، خائفة ، يبدو عليها الفزع ، لأن هذا الداء الخبيث «الطاعون» هو الشئ الوحيد الذى يستطيع أن يثير الرعب والضيق فى هذه المخلوقات المتوحشة !؟

وأخيرا صاح (بيبو) فى المرأة مرة أخرى :

— اغربى عنا ... اغربى بطفلك هذا المصاب بالطاعون !

.. وفى ضحكة خشنة ألهبت العجوز ظهر حصانها بالسوط وانسلت خارج باريس ! .

. . وأقسمت هذه الواقعة أصيل اليوم .. ولا يزال أفراد الجماعة التى حول (بيبو) ينظر بعضهم إلى بعض فى ريبة وحذر ولا يزالون يتحاشون بعضهم خشية أن يكون «الطاعون» .. قد اندس بينهم من قبل .. ثم أقبل فجأة ضابط من الحرس . . وكان حقيقة هذه المرة . . لأنه معروف شخصيا (لبيبو) ... ولا خوف أن يتكشف عن ذلك الإنجليزى المخادع المتنكر ... وقبل أن يصل الضابط إلى الباب كان يصيح : —

— عربة ... العربة ! ...

فسأله (بيبو) فى لهفة : —

— أية عربة ؟ ! ...

— تقودها امرأة عجوز ... عربة مغطاة !...

— إن من نوعها الكثير !...

— امرأة عجوز تزعم أن حفيدها مصاب بالطاعون ! ...

— أوه ! ... نعم ! ...

— بالطبع ... أنت لم تتركها تذهب ! ! ...

فأجاب (بيبو) وقد استحالت حمرة خده إلى شحوب الموت : —

— كلا ! ...

— إن هذه العربة تحمل (الكونتس دى تورنيه)وطفلها .: وهم من الخونة .. الذين تنتظرهم المقصلة !...

... وكانت رعدة الخوف قد تملكت (بيبو) عندئذ ... فتمتم كالمهموم قائلا : —

— ومن السائق ؟! ...

— لا شك أنه ذلك الإنجليزى الملعون ... رئيس العصابة الغامضة !...

الكيلان

محمود البكرى محمد

جامعة فؤاد الأول